

## مالك بن نبي من نقد العقل إلى نقد الفعل.

أ. بن جلطي محمد

mohamed.bendjelti@univ-biskra.dz

## الملخص:

إن المتتبع للتاريخ والسياق المعرفي والفلسفي للفكر العربي والإسلامي لا بد وأن يتنبه إلى أن إشكالية التقدم والتأخر التي عانى منها الفكر العربي الإسلامي ولا يزال يتخبط فيها إلى حد الساعة منذ حوالي القرنين - الثامن والتاسع عشر -، تعود بالأساس إلى كون أن الباحثين والدارسين المشتغلين بالحالة الإسلامية قد عنوا بالدرجة الأولى بالبحث والنظر والتأسيس أي الجانب النظري، في حين أنهم قد أغفلوا إلى حد ما إن لم يكن تماما الحاجة الشديدة والموجبة لاستقراء هذه النظريات والأفكار على أرض الواقع من جهة، ومن جهة أخرى اتسم الكثير منها بالصبغة الطوباوية التي استحالت الممارسة والتطبيق، مما أحدث فجوة واسعة بين النظري والعملي أي بين فكرة الباحث وموضوعه التصديقي.

الكلمات المفتاحية: النقد؛ العقل؛ الفعل؛ مالك بن نبي.

إن المتتبع للتاريخ والسياق المعرفي والفلسفي للفكر العربي والإسلامي لابد وأن يتنبه إلى أن إشكالية التقدم والتأخر التي عانى منها الفكر العربي الإسلامي ولا يزال يتخبط فيها إلى حد الساعة منذ حوالي القرنين - الثامن والتاسع عشر -، تعود بالأساس إلى كون أن الباحثين والدارسين المشتغلين بالحالة الإسلامية قد عنوا بالدرجة الأولى بالبحث والنظر والتأسيس أي الجانب النظري، في حين أنهم قد أغفلوا إلى حد ما إن لم يكن تماماً الحاجة الشديدة والموجبة لاستقراء هذه النظريات والأفكار على أرض الواقع من جهة، ومن جهة أخرى اتسم الكثير منها بالصبغة الطوباوية التي استحالت الممارسة والتطبيق، مما أحدث فجوة واسعة بين النظري والعملي أي بين فكرة الباحث وموضوعه التصديقي. هذا القول ليس في صدد نفي أنه يمكن لمتقف الفعل لا لمتقف العقل أن يمر من برزخ الكينونة إلى واقعية العالم من أجل العمل على النهوض بالحضارة الإسلامية العربية، لكن الأصل أن هذا لا يكون إلا عن طريق اتباع استراتيجية فكرية وإصلاحية (فعلية)، تعنى بالدرجة الأولى بالممارسة التفكيكية لكل المفاهيم والأفكار الموروثة والراسخة داخل المخيال الثقافي والاجتماعي للعقل العربي والتي تلعب دوراً مهماً في التأسيس للفعل الحضاري لشعب ما والتبلورات الفلسفية والسوسيولوجية له تبعاً لأن "الآلية الوظيفية التي يتحلّى بها هذا المتخيل في المنعطفات التاريخية الملتزمة هي التي ينبغي أن تكون المادة الأولى للتحليل والفهم والتفسير"<sup>1</sup>، بعبارة

<sup>1</sup> محمد أركون، أين هو الفكر الإسلامي المعاصر، تر. هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، لبنان،

أخرى العمل أولاً على القراءة وإعادة القراءة للأفكار المؤسسة لتكون العقل الاسلامي العربي. من هنا يتوجب علينا أن ندرس الفكر الاسلامي ومكوناته الجزئية على مستوى الجماعة والفرد والدولة وذلك بالاعتماد على عنصر الدقة والبراعة في التحليل بالنسبة لكل الأبعاد النفسية والاجتماعية بل وحتى السياسية والاقتصادية لأن الوعي لا يشكل جوهر حياة الأفراد النفسانية بأكثر مما تشكل المؤسسات والتمثيلات السياسية جوهر الحياة السياسية للجماعات"<sup>2</sup>. إلا أنه وعلى مستوى الفعل الاصلاحي الميداني. كيف يمكن أن نقدم هذه الأسطر كمشروع ممارساتي يمكن من خلاله البدء في مشروع نهضوي، بعبارة أخرى لماذا تأخرنا وتقدم الغرب ؟.

جاء سؤال الإصلاحية في وقت كان العالم الإسلامي منهك بسبب الحوادث والكوارث التي أصابته بفعل فساد، واستبداد حكامه. فكان كالرجل المريض بل كالشيخ الهرم مستسلماً، لكل فعل داخلي كان أو خارجياً، راض عما يجري بفعل تلك الهالة النرجسية التي اكتسبها من موروث الدولة / الخلافة. فساد التدهور والتقهقر مجمل البلاد الإسلامية في كل الميادين العسكرية والقضائية والوزارية وحتى التعليمية إلا في بعض الكتب الفقهية و النحوية التي تلوكها الألسن لا العقول. في مثل هذه الظروف كان العالم العربي تحت حكم الدولة العثمانية - من القرن السادس عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين - وبحكم تغير موازين القوى بدأت الدول الأوروبية تطمح لميراث هذا

<sup>2</sup> ريجيس دبريه، نقد العقل السياسي، تر . عفيف دمشقية ، منشورات دار الآداب، بيروت، لبنان،

الرجل المريض لكي تمد حركتها الصناعية بالمواد الأولية. فكانت الحملة الفرنسية هي إحدى بوادر هذه الطموحات (1798-1801م) ومعها كانت المواجهة بين حضارة فقهية لغوية ظنت نفسها - بل أرادت أن تظن - أنها الأقوى إقليمياً بميراثها الكبير من الدولة/الخلافة، وبين حضارة ناهضة، نزعت ثوبها الميثولوجي وكونت لنفسها مؤسسات سلطوية ومدنية استطاعت بهما أن تنموا وتطور نفسها صناعياً وتكنولوجياً.

هذه الحملة كانت بمثابة الزلزال المعرفي الذي أطاح بنرجسية الدولة/الخلافة، خاصة في وعي النخبة المثقفة، التي أعادت طرح التساؤل في المعيار الفكري الموروث، هل للموروث الإسلامي دخل في ثنائية التقدم والتأخر؟ أم أن طبيعة المشكلة تكمن في طبيعة النظام السياسي الحاكم؟ .

إذن، لقد ارتبط سؤال الإصلاحية الإسلامية بالاحتكاك المباشر والكبير مع التطور الأوروبي الذي كان - ولا يزال - يمثل تحدياً في مستوى التنافس الحضاري من جهة، وضاعطاً من موقع النمو والتطور في المستوى العلمي والتكنولوجي والصناعي من جهة أخرى. في حين أن الفكر الإسلامي كانت مجمل قضاياها مرتبطة بالمفاهيم العقدية والإصلاحية الدينية والاجتماعية، تحيلنا هذه العبارات، إلى أن مفهوم الإصلاح في الفكر الإسلامي ارتبط بالمفهوم السياسي خلافاً لما يذهب له العقل الأصولي، في أن مفهوم الإصلاح مرتبط دائماً وأبداً بالمعيار الديني من موقع القول "لا يصلح آخر

هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"<sup>3</sup>، لأن الإصلاح كمفهوم في الفكر الإسلامي كان قبل الوافد الأجنبي يركز على فكرة أن الإصلاح بالإسلام ذاته. لكن يبدو أن الخلل وقع في المفهوم حين طرأ الجديد على المعادلة الاجتماعية، بدخول العنصر الأجنبي فأصبح من الواجب وتحت الضغط الأوروبي الكبير النظر في مفهوم الإصلاح وفك الارتباط بينه وبين المعيار الديني. هذا ما سيحيلنا إلى التماس الأثر الغربي في عملية الإصلاح المتبعة أي "هنا سيصبح المسلمون بحاجة إلى الغير في تصورهم لعملية الإصلاح"<sup>4</sup>.

داخل كل هذه الإرهاصات نشأ سؤال الدولة الأول في الفكر الإسلامي الحديث بصيغة المدنية داخل النخب الفكرية رادين الخلل-أو إشكالية التقدم والتأخر-الذي أصاب المجتمعات الإسلامية إلى الميدان السياسي .

إن ما سبق من الذكر، هو ما شكل الإرهاصات الفكرية لفكر مالك بن نبي وهو ما ساهم جدا بأن يكسب فكره راهنية اليوم واللحظة، بل يظهر أن راهنيته تزداد وتتضخم يوما بعد يوم. والحديث عن المشروع النهضوي العربي الاسلامي، يحيلنا دونما تردد إلى العودة لأعمال مالك بن نبي التي لقيت اهتمامًا كبيرًا في ذلك الرعيل الذي جال به. بالفعل، نحن أمام قامة فكرية. ذلك أن مالك ابن نبي ليس مفكرًا جزائريًا فقط حتى ولو تحدث عن شروط النهضة في الجزائر، لكن في الحقيقة هو مفكر عالمي بامتياز. فقد وصل الأمر

<sup>3</sup> عبد الإله بلقزيز، الدولة في الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2004، ص 22 .

<sup>4</sup> على أو مليل، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، دار التنوير، بيروت، ط1، 1985، ص 17-18

الى تسميته ابن خلدون الثاني، لأنه أحيا رسوم ابن خلدون، ولكن زاد عليها وكان أجراً من ابن خلدون في كثير من الأمور بحكم البيئة ومقتضيات الواقع طبعاً. فلا يخفى علينا أنه تعرّف على تلاميذ المصلح الكبير عبد الحميد بن باديس، كما قرأ لعددٍ من الكُتّاب الفرنسيين، وكان يتردد -أيضاً- على إحدى البعثات التبشيرية الإنجيلية، فتعرّف على الإنجيل، وناقش هؤلاء المبشرين في أدق الأفكار<sup>5</sup>، بإضافة أيضاً لرموز الحركة الوطنية الذين تعرّف عليهم سواء في باريس أو في مصر، فقد كانت له علاقة مع المجاهد المغربي الكبير عبد الكريم الخطابي، ولكن يبقى الحظ الأكثر عندما تعرّف على الطالب عبد السلام الهراسي الذي عزّفه أيضاً من جهته بعبد الصبور شاهين الذي عمل على ترجمة أعماله وإدخالها إلى اللغة العربية. وهذا ما ساهم في خلق تنوع ثقافي لديه .

ومن خلال هذا عمل على التكيف مع قضايا عصره ومع مشكلات المجتمع الجزائري بشكل أعمق وأوسع وأكمل، فهو مالك ابن نبي وإن نشأ تحت وطأة الاستعمار وضغطه، إلا أن أفكاره اتسمت بالجرأة، ولم يترك شيئاً في نفسه إلا وعبر عنه، فالمتتبع للسياق الخطابي لديه من خلال جل كتبه بما فيها حتى الظاهرة القرآنية، كان ليلمس تلك اللغة المتحدية للاستعمار والداعية دوماً إلى مواجهته لأن الاستعمار يسعى أولاً أن يجعل من الفرد خائناً ضد المجتمع الذي يعيش فيه، فإن لم يستطع فإنه يحاول أن يحقق خيانة

5 - مصطفى عاشور: مالك بن نبي.. فيلسوف مشكلات الحضارة ، حدث في العام الهجري ، :

المجتمع لهذا الفرد على يد بعض الأشرار... وكل ما نتمناه هو أن تقوم في بلادنا رابطة من المثقفين لكشف هجمات الاستعمار على الجبهة الفكرية حتى لا تبقى الأفكار معرضة لتلك الهجمات دون نجدة ولا مدد<sup>6</sup> ولهذا كان لزاما على المسلم أن يأخذ بأسباب التحرر من هيمنته وتسلطه من خلال النهوض "بالمسألة الثقافية المعرفية في العالم الإسلامي وقد أورد في هذا الصدد أنه "علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي"<sup>7</sup>. وبالعودة إلى منابع فكر مالك بن نبي، نجد أنه وإن كان مهندساً مشغولاً بالكهرباء إلا أن هذا لم يقمع تلك الرغبة الجارحة للاشتغال بعلوم الإنسان والمجتمع، وهذا ما تجلّى في إطلاعاته الأولى على مجموعة من الأدبيات النهضوية والإصلاحية من قبيل مؤلفات عبد الرحمن الكواكبي، والشيخ محمد عبدو، ومجموعة أخرى من رواد الإصلاح والتجديد. ومن إحدى المفارقات أنه وإن درس الكهرباء إلا أنه لم يشتغل بها، وهذا يعود لكونه كان مأخوذاً بالعلوم الاجتماعية والفلسفة، التي تحضر بشكل كبير في كل نصوصه، كما أن المشتغل بالفلسفة الغربية لا بد وأن يلمسها في خطابه بحيث يكاد لا يخلو أي نص له منها.

لكن ما نريد أن نشير إليه في هذه الورقة البحثية، هو أنّ مالك ابن نبي بالأساس يعيدنا إلى المصلح رفاعة الطهطاوي، الذي كان في رحلته مدسّناً

<sup>6</sup> ابن نبي مالك، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دمشق، دار الفكر، 1979، ص 125، 126.

<sup>7</sup> ابن نبي مالك، إنتاج المستشرقين، القاهرة، مكتبة عمار، 1970، ص 62.

لبداية التفكير في الفجوة بين العالمين، وهنا لا نستخدم مفهوم الحضارتين، لأنّ مالك ابن نبي له مفهوم أعمق للحضارة، فهي كالحرية لا يمكن الحصول عليها إلا بالإنسان المتعقل، المدرك لوقته، والمتفاعل مع التراب، والمتناغم مع التراث، والمتعلق بالمعارف العالمية على السواء، دون أن يتحول إلى زبون مستهلك ولا ينتج<sup>8</sup> إذ يجد أنّ الحضارة هي إنسانية وشاملة، وأن الذي يشارك فيها هو الجميع والذي يتأثر بها هو الجميع كذلك، وهذا ما يضع العالم الإسلامي أمام وجوب الانخراط في بناء الحضارة الإنسانية وبأن يكون جزءاً أساسياً منها. هذه الأخيرة هي التي يحاول من خلالها هدم التصور القائل أن العالم يقوم على أساس صراع الحضارات أو ثنائية حضارة مقابل حضارة، فهذه العناوين مقدمة لتسطيح القول في الحضارة فقط. فبالعودة إلى خطاب النهضة من أيام رفاة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني نجده أنه كان خطاباً ذو إيقاع رفيع، أي خطاب يتحرّك في الأفق الحضاري، كما أنه يتسم بعمق فكري وعقلي أيضاً. ومع تدهور الأوضاع وسقوط الخلافة العثمانية وهيمنة الإستعمار وغير ذلك من الظروف، تشكّل نوع من ردود الأفعال التي انتهت إلى ما بعد محمد عبدو ورشيد رضا أدخلت الفكر الإسلامي في حالة من النمطية في التفكير.

وهنا لا نود أن نمرّ على الأدبيات التي ظهرت في ما بعد رشيد رضا مع تيار الإخوان المسلمين أو غيره، مع سيد قطب ومحمد قطب تحديداً، اللذين

<sup>8</sup> بوعرفة عبد القادر، الانسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 1،

حاولا أن يعالجا قضايا كثيرة في الحضارة، ولكن للأسف وفق المفهوم الصراعى الذي ربما شكل في ما بعد عقود من الزمن مادة دسمة لهنتنغتون غدت فكرة صراع الحضارات لديه. في هذه الفترة سادت حالة شديدة من الفراغ في الفكر العربي والإسلامي، لكن وبالموازاة كان هناك على الهامش مالك ابن نبي، الذي لم يؤسس حزباً أو جماعة، بل كان يتحرك بفكر كبير وسابق حتى للغرب، ففي الفترة التي انتقد فيها رواد مدرسة فرانكفورت الحضارة الغربية وأعلنوا أنها وصلت الى باب مسدود إلى غير ذلك مع ماركيز وأدورنو وغيرهما في ما بعد، ومع ظهور تيارات فلسفية جديدة أي الفلسفة النقدية التي كانت تضع الحضارة الغربية في محك النقد. يمكن القول أنه بالموازاة، شكل مالك ابن نبي همزة الوصل بين فكر النهضة والإصلاح، من خلال محاولة الجمع بين الفكر النهضوي الغربي وبين الفكر النهضوي الإسلامي وبالتحديد الاشتغال على فكرة الجامعة الإسلامية المطروحة من قبل جمال الدين الأفغاني.

إن محاولة الجمع هذه لم تكن في سبيل التوفيق بقدر ما هي محاولة تأسيسية لفكر نهضوي إسلامي غير تابع، لأن القارئ لبن نبي لابد وأن يعلم أن مسألة الثورة لديه ليست تحرراً منه فقط فهناك العديد من يعتبرون أنّ قضية التحرر من الاستعمار هي مجرد طرد لمستعمر، لكن بالمقابل يذهب مالك بن نبي إلى أبعد من ذلك ليتحدث عن فكرة القابلية للاستعمار وعن كيفية الانخراط في الحلول الحضارية الكبرى ومن هنا قوله "إن هناك نتيجة منطقية وعلمية تفرض نفسها، هي: أنه لكي نتحرر من أثر هو الاستعمار،

يجب أن نتحرر أولاً من سببه وهو القابلية للاستعمار. فكون المسلم غير حائز جميع الوسائل التي يريد لها لتنمية شخصيته، وتحقيق مواهبه: ذلك هو الاستعمار، وأما ألا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداماً مؤثراً ، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع من مستوى حياته ، حتى بالوسائل العارضة ، وأما ألا يستخدم وقته في هذه السبيل، فيستسلم - على العكس - لخطوة إفقاره وتحويله كماً مهماً، يكفل نجاح الفينة الاستعمارية : فتلك هي القابلية الاستعمارية ."<sup>9</sup>

إذا نحن أمام قامة فكرية بأتم معنى الكلمة ، لكن يبقى السؤال، لماذا مالك ابن نبي تعامل مع الفكر بأسلوب رياضي ؟ الحضارة تساوي "إنسان زائد وقت زائد تراب"<sup>10</sup>. فنحن عندما نتأمل مصطلحات مالك ابن نبي، إما نغير أو نغير، إما نكون أو لا نكون، أن المجتمعات التي لا تحترم الأفكار تموت... نجد رياضية قابلة للحياة .

هذا الكلام يوضح أن مالك بن نبي كان يعرف ماذا يريد، لم يكن تأثراً في خضم التحديات، فعندما نشأ في الجزائر ووجد تحدي الاستعمار الفرنسي في الفرنسية مقابل العروبة وفي التنصير مقابل الإسلام وفي نسخ الوطنية الجزائرية ، تأثر بفكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفكر عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي قبل أن يقرأ الطهطاوي وغيره ، لذلك

9 - ابن نبي مالك ، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ، ص 105 .

<sup>10</sup> ابن نبي مالك ، تأملات ، دار الفكر دمشق ، ط 2 ، 2002 ، ص 170.

عندما كتب كتابه الشهير "الظاهرة القرآنية" ، قال فيه عبارة نحتاجها في كل عصر ومصرٍ وزمن، ففي هذه العبارة يقول "علينا أن نتعامل مع النصّ القرآني وكأنّ الوحي ينزل لتوه من السماء". أي يجب ان نتفاعل روحًا وفهمًا مع النص دون أن نثقله بالإسرائيليات أو ببعض التراثيات الميتة. ولذلك حذر مالك بن نبي من موردين فكريين نعاني منهما الآن: الوافد المسموم، والموروث الميت، فكلاهما قاتل. لكن هو عندما بدأت مرحلة الثورة في الجزائر ووجد حضانة جمال عبد الناصر والقاهرة للثورة، ترك باريس إلى مصر، وهو قد عمل وصنع مشروعه "مشكلات الحضارة" وهو في إعلام مصر وعلى مدارج الجامعات في القاهرة وفي دمشق وفي لبنان، وكان حوله من حوله من الناس. وهذا الأمر يظهر أنه كان صاحب مشروع وحوله رعاية.

إن مالك بن نبي حاول ألا يحبس نفسه في عالم الذهن والتأمل بل ذهب الى التأسيس من موقع بناء أفكاره وإخراجها للحياة والبعث وهذا الأمر يتطلب وعي اجتماعي متماسك ومتضامن يكون فاعله الأساس المثقف لأنه إذا كانت الأمة تمثل الجسم فإن النخبة - والمثقف عنوانها - عقله والملكة المحركة والمشخصة لذاقتها. لكن هذه الثنائية لا يمكن لأي حد منها أن يقوم دون الآخر فهما في تكامل واتزان ما داما معا، فلا الأمة سيكتب لها النهوض دون نخبتها ولا المثقف يمكن له انجاح زرعه دون أمة وجمهور خاص لذلك الفكر، "و لكن اذا أردنا أن نذهب في هذا السياق الى أقصى تحليل يجب أن نقول أن أن المشكلتين بقيتا معا دون حلول، فلا الجمهور اكتسب الروح الاجتماعي الذي يفتقده ولا النخبة اكتسبت الفكر الذي يعوزها،

أليس ي هذا ما يجعلنا نستحق فعلا التشبه بالفراش\* لأننا نتنقل من مشكلة إلى أخرى تسلية وتضييعا للوقت<sup>11</sup>

ولذلك نجده يركز على فكرة الأفروآسيوية ومؤتمر باندونغ أو محور طنجة جاكرتا بالعموم هذا المحور هو العالم الإسلامي الذي يسميه علماء الجغرافيا القارة الوسيطة، أي هي قارة الاعتدال المناخي والاعتدال الفكري وقارة الثروات بكل أنواعها ، وفي قلب هذه القارة الوسيطة الأمة العربية، وفي قلب الأمة العربية مصر التي ترعرع في رحابها فكر مالك ابن نبي، فكتب معظم فكره برعاية وتمويل جمال عبد الناصر ومصر، ومن ثمّ بعد الثورة والاستقلال في الجزائر ذهب وكان مديراً للتعليم العالي.

إذاً غير صحيح أنه كان فقط ينظر من خلال المكتبات. الأمر الآخر أنّ المسألة التي تحدث عنها بشكل رياضي، قبل أن نتحدث عن مسألة الحضارة، أولاً ميّز بين الثقافة والحضارة والمدنية، فالمدينة مُنجزٌ مادي تقني والحضارة منجز في الإنسان والمادة والثقافة هي الهوية، لذلك أكّد وركز على مسألة أساسية بأنّ الرأسمال الإنساني البشري هو الرأسمال الأهم، أهم من تكديس الأشياء، ولهذا عندما تحدث مالك ابن نبي عن مسار الحضارة

<sup>11</sup> ابن نبي مالك ، في مهب المعركة ، دار الفكر ، الجزائر ، ط 1 1991 ، ص 124.

\* المثقف الفراشة ينتقل من مشكلة إلى أخرى مما ينتج عنه تضييع للوقت ، و اغتيال للعقل وتفاقم

الحن و عدم قدرة الوعي الحضاري على التبلور كفعل حضاري يؤسس للعالمية الثانية للحضارة

الاسلامية .للمزيد أنظر بوعرفة عبد القادر ، الانسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، دار الغرب

للنشر و التوزيع ، ط 1 2001، ص 66.

وصيرورتها في صيرورة الإنسان، تحدّث عن ثلاثية هي عالم الأفكار الذي يحملها عالم الأشخاص للفعل والإنجاز في عالم الأشياء.

فإذا الإنسان هو الذي يحمل الفكر من أجل أن ينجز في الحضارة لهذا القضية ليست في ترتيب القيم الاجتماعية "ولكن في بنائها متضامنة متكاملة كبناء الكائن الحي، الذي ينمو في جميع جوانبه في وقت واحد حتى، لا يكون له مثلاً راس رجل وأعضاء جني"<sup>12</sup>. نعم، نحن لنا حضارة لها خصوصية نابعة من هويتنا. هذه الحضارة نقدم إنجازاتها للآخرين. لذلك من هذا المنطلق نقول الثقافة تنجز الإنسان والإنسان ينجز الحضارة وهذا ملمح أساسي عند مالك ابن نبي، في عالم الأفكار وعالم الأشخاص وعالم الأشياء. إذا انتقلنا إلى المعادلة الرياضية، نجد ابن نبي يقول بأن الحضارة تساوي "إنسان بالترتيب، تراب، زمن" ولم يقل وقت لأن الوقت هو محطة قليلة الزمن لأن أساساً المرحلة تحتاج الى وقت طويل والتراب كان يقصد به الثروة لكن هو قدم الإنسان، لذلك إذا أردنا أن نطلق مشروعاً حضارياً لا بدّ أن نوجّه الاهتمام على الإنسان من أجل أن نعرف بأن الهوية الثقافية وهذه ركز عليها مالك ابن نبي، الهوية الثقافية لأبناء الأمة العربية هي من الراعي إلى الفيلسوف هي نفسها، كما ضرب مثلاً عن البريطاني، فالراعي البريطاني هو نفس الهوية الثقافية التي عنده إلى أن نصل إلى المفكر.

12 - ابن نبي مالك ، بين الرشاد والتيه، دار الفكر ، دمشق ، ط 2 ، 1988 ، ص 76 .

فإذا الإنسان هو الذي يحمل الفكر من أجل أن ينجز في الحضارة لهذا القضية ليست في ترتيب القيم الاجتماعية "ولكن في بنائها متضامنة متكاملة كبناء الكائن الحي، الذي ينمو في جميع جوانبه في وقت واحد حتى، لا يكون له مثلاً راس رجل وأعضاء جني"<sup>13</sup>. نعم، نحن لنا حضارة لها خصوصية نابعة من هويتنا. هذه الحضارة نقدم إنجازاتها للآخرين. لذلك من هذا المنطلق نقول الثقافة تنجز الإنسان والإنسان ينجز الحضارة وهذا ملمح أساسي عند مالك ابن نبي، في عالم الأفكار وعالم الأشخاص وعالم الأشياء. إذا انتقلنا إلى المعادلة الرياضية، نجد ابن نبي يقول بأن الحضارة تساوي "إنسان بالترتيب، تراب، زمن" ولم يقل وقت لأن الوقت هو محطة قليلة الزمن لأن أساساً المرحلة تحتاج الى وقت طويل والتراب كان يقصد به الثروة لكن هو قدم الإنسان، لذلك إذا أردنا أن نطلق مشروعاً حضارياً لا بدّ أن نوجّه الاهتمام على الإنسان من أجل أن نعرف بأن الهوية الثقافية وهذه ركز عليها مالك ابن نبي، الهوية الثقافية لأبناء الأمة العربية هي من الراعي إلى الفيلسوف هي نفسها، كما ضرب مثلاً عن البريطاني، فالراعي البريطاني هو نفس الهوية الثقافية التي عنده إلى أن نصل إلى المفكر.

من هذا المنطلق وجد مالك ابن نبي أنّ النهضة ستكون في الإنسان ولهذا ركّز على مسألة التربية وعلى مسألة الإعداد والتوجيه، ومنها تحدّث عن عالم الاقتصاد، وفي عالم الاقتصاد هناك لفظة جد مهمة. هذه اللفظة هي في عالم

13 - ابن نبي مالك ، بين الرشاد والتيه، دار الفكر ، دمشق ، ط 2 ، 1988 ، ص 76 .

الاقتصاد عندما قال بأنّ الأمن الغذائي له الأولوية وأنّ أمتنا العربية وعالمنا الإسلامي عنده الخبرات المتراكمة في الزراعة، فلنبداً التنمية من الزراعة أولاً.. فلو اجتمعت ليبيا بشساعة تراها ومصر بسواعد أبنائها والكويت بأموالها المعطلة لأدرك العالم العربي كله أن شروط الاقلاص والاكتفاء الذاتي هي تحت يده<sup>14</sup>. فأولاً نختصر مسافات في التقدم، وثانياً نؤمن الأمن الغذائي.

من هذا المنطلق إذا نجد أن مالك ابن نبي كان يعرف إلى أين يتجه. أما أن نربط ما فعله مالك ابن نبي مع واقعنا، في الحقيقة أفكار مالك ابن نبي حاضرة في الملتقيات، في الأفكار، في الجامعات عند المفكرين، وليس فقط في ماليزيا، في كل عالما من طنجة إلى جاكرتا على تفاوت.

في الحقيقة هناك فكر فئوي، فكر عنصري ادّعى أنه يمثل الإسلام لوحده وأنه له الحق الحصري في الفهم والتفسير ، هذا الفكر هو الذي أنتج هذه المجموعات الإرهابية التكفيرية التي أهلكت الحرث والنسل وأهلكت فكر مالك ابن نبي وفكر غير مالك ابن نبي لأنها هي صادرت الحق في التفكير عند الآخرين. لكن عند العودة إلى مالك ابن نبي، نجد بأنه عالج مشكلات الأمة أولاً في بعد العلاقات الدولية، عندما تحدث عن قيمة محور طنجة جاكرتا كمنطقة فاصلة في الصراع الدولي والحرب الباردة، تحدث عن الاقتصاد، تحدث عن الدائرة العربية ضمن الدائرة الإسلامية وهذه قضية مهمة جداً وكانت له الحضانة.

<sup>14</sup> ابن نبي مالك، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 4، 2000، ص 102 .

لهذا السبب في الحقيقة يجب التأمل بإمعان خاصة في نقطة مهمة يجب أن نبدأ منها كلنا هي عندما حدّد بأنّ النهضة تكون من الإنسان أولاً، انطلاقاً من الآية الكريمة الحادية عشرة في سورة الرعد "إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ" <sup>15</sup>.

إننا نعتقد بأنّ مالك ابن نبي هو الذي واصل وطوّر تفكير النهضة والإصلاح من رفاع الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني، ولكن للأسف الذي غلب هو فكر الجماعة والفكر المتحرّب الذي لا يلتفت إلى الأفكار العميقة وإلى من هو خارج الحدود.

إن قوة فكر مالك بن نبي تكمن في أنه تمكن من التنبؤ بمصير الأمة الإسلامية، إذ نحن نعيش اليوم كلّ المصائب والانحرافات ونشهد معالم الانحطاط التي حدّرت منها المرحوم المفكر مالك ابن نبي ، الذي ميّز بين الحضارة والثقافة تشتمل في "معناها العام على إطار حياة واحدة يجمع بين راعي الغنم والعالم، بحيث توحد بينهما مقتضيات مشتركة ، وهي تهتم في معناها بكل طبقة من طبقات المجتمع فيما يناسبها من وظيفة تقوم بها، وما لهذه الوظيفة من شروط خاصة، وعلى ذلك فإن الثقافة تتدخل في شؤون الفرد، وفي بناء المجتمع، وتعالج القيادة ، كما تعالج مشكلة الجماهير" <sup>16</sup>.

إن المفاهيم المقدمة من قبله تجعله يقف على مفرق طريق مع ما سيقوله هنتغتون فيما بعد، أي إن الصراع لا يكمن بين حضارات بحد ذاتها، وإنما

<sup>15</sup> سورة الرعد ، الآية 11.

<sup>16</sup> ابن نبي مالك، مشكلة الثقافة، دمشق، دار الفكر، سنة 1399 هـ - 1979 م، ص 74

بين الثقافات والقيم وبين التقدم والتخلف. و هنا يطرح مالك بن نبي فكرة قوية عندما يشير إلى ضرورة الوعي بالجغرافيا السياسية التي يجب أن تتحرك فيها أفكار النهضة والتغيير. فكما نعلم لقد وُلد عام 1905، وقبل عام من ذلك كان ماركن دارلي نشر مقالا شهيرا صدر في إحدى الصحف المعنية بالجغرافيا في لندن، يتمحور حول فكرة المحور الجغرافي ووظيفته في صنع التاريخ، وبذلك تأسس العلم المسمى "الجيوسياسية" .

طبعا ليس هذا من قبيل الصدفة، بأن يأتي مالك ابن نبي ويركّز على هذه الفكرة ، لكنه بادر إلى طرحها في الساحة الفكرية، من خلال فكرة الأفرو آسيوية والتي يحاول من خلالها التركيز على كيفية انبعث الحضارة في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة وهذا الإقليم، الذي غالبا ما يسمى بإقليم الاعتدال، وهذا ما ذهب إليه العديدين أمثال ماكيندرو وغيره ممّن تحدّثوا عن نشوء الحضارة والأديان في هذه المنطقة.

من هنا يرد موقف مالك ابن نبي الراض لفكرة استقلال باكستان عن الهند، لأنه كان يرى أنّ الإسلام والهندوسية وكلّ هذه الديانات في هذه المنطقة تستطيع أن تؤسّس لها محورا حضاريا يناهض هذا الإفلاس الحضاري الموجود. لذلك، وبالفعل حينها كان يريد أن يتوجّه إلى الهند لكي يقدّم كتابه عن فكرة الأفرو آسيوية والذي تعذر ربما قطعه في مصر، كما أن مشروعه قد تقاطع مع مشروع جمال عبد الناصر وغيره.

طبعا ليس هذا من قبيل الصدفة، بأن يأتي مالك ابن نبي ويركّز على هذه الفكرة، لكنه بادر إلى طرحها في الساحة الفكرية، من خلال فكرة

الأفروآسيوية والتي يحاول من خلالها التركيز على كيفية انبعاث الحضارة في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة وهذا الإقليم، الذي غالبا ما يسمى بإقليم الاعتدال، وهذا ما ذهب إليه العديدين أمثال ماكيندرو وغيره ممن تحدثوا عن نشوء الحضارة والأديان في هذه المنطقة. من هنا يرد موقف مالك ابن نبي الراض لفكرة استقلال باكستان عن الهند، لأنه كان يرى أنّ الإسلام والهندوسية وكلّ هذه الديانات في هذه المنطقة تستطيع أن تؤسّس لها محورًا حضاريًا يناهض هذا الإفلاس الحضاري الموجود. لذلك، وبالفعل حينها كان يريد أن يتوجّه إلى الهند لكي يقدّم كتابه عن فكرة الأفروآسيوية والذي تعذر ربما قطبعه في مصر، كما أن مشروعه قد تقاطع مع مشروع جمال عبد الناصر وغيره.

لكن يمكن القول، أنّ مالك ابن نبي أدرك أنه في الحقيقة عندما تحدّث بسلبية عن قضية استقلال باكستان، إنما كان يخشى من هذا الفرق، وهذا التمييز، سيهدم مجال الذي كان متعايشًا فيه من قبل السكان، وكان بإمكانه أن يتعايش أكثر، وهنا تساؤل عن ما الذي أحدث هذا الصدام ؟ . إنه ودون أي شك انبثاق شكل من الإسلام الهندي في هذه المنطقة، أي ظهور قراءات جديدة للإسلام وكيفية تعامله مع الآخر المختلف والذي هو أساس كل ما نجده الآن أي الخطاب التطرفي المقصي للآخر، ولا نريد هاهنا أن يتسع المجال لكي نبين المراحل التي قطعها هذا النمط من الإسلام الذي انتهى إلى هذا العصر، والذي يعد المرجعية الفكرية لظهور ظاهرة تدعّش الخطاب الإسلامي.

من هنا نجد أن لمالك ابن نبي فكرا إسلاميا يتسم بالمعايير الحضارية الذي يجتمع على فكر وفلسفة يرفض فلسفة الذبح والقتل، قتل الإنسان الذي اهتم به مالك ابن نبي وجعله محور الحضارة "إنسانية بن نبي تجلت في احترامه للإنسان العالمي، والدعوة إلى تكريمه كما كرمه الله قبل، والاعتراف بحقوقه المدنية والطبيعية، والإقرار بالحرية كمبدأ وقاعدة لجميع الممارسات"<sup>17</sup>. لذلك نعتقد أنّ مالك ابن نبي للأسف، أفكاره الراهنية جدًّا والمتفوقة على الكثير من أشكال الخطاب الديني الآن للأسف لم يعطَ لها أي اهتمام حقيقي، وهو وإن شغل بعض المناصب، إلا أن الاهتمام الحقيقي يتجلى في تلك الممارسة الواقعية لهذا الفكر الإنساني.

---

<sup>17</sup> - بوعرفة عبد القادر، الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق، ص 80